٣٢- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى

{وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ} (المَائِدَة:٢٣).

وَقَوْلِهِ {إِنَّمَا المُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ} (الأَنْفَال:٢).

وَقَوْلِهِ {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ} (الأَنْفَال:٦٤).

وَقَوْلِهِ {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} (الطَّلَاق:٣).

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيْمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ قَالُوا لَهُ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ} (آل عِمْرَان:١٧٣). رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.(١)

فِيْهِ مَسَائِلُ:

الأُوْلَى: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوْطِ الإِيْمَانِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيْرُ آيَةِ الأَنْفَالِ.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيْرُ الآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخَامِسَةُ: تَفْسِيْرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشَّدَائِدِ.

الشرح :

المؤلف رحمه الله تعالى يتكلم في هذا الباب عن عبادة عظيمة جدا يحتاج إليها كل مسلم وهي عبادة التوكل على الله جل وعلا ، وكما قيل: التوكل نصف الدين **والنصف الثاني الإنابة ، فإن الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ؛ والإنابة هي العبادة ، والتوكل أعم من الاستعانة فالاستعانة هي الاعتماد على الله فيما يقدر عليه العبد والتوكل هو الاعتماد على الله فيما يقدر عليه العبد ومالا يقدر عليه من جلب منفعة ودفع مضرة ، فالتوكل يكون في جلب المنافع ودفع المضار والاستعانة تكون على العبادة** ، وهذا المبحث يحتاج إليه كل إنسان سواء كان من المؤمنين أم من غير المؤمنين ،

---

(١) رواه البُخَارِيُّ في صحيحه برقم(٤٥٦٣ ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الكُبْرَى (١١٠١٥).

فيحتاج إليه حتى الكافر، بل يحتاج إليه غير البشر من الطيور والبهائم والحيوانات ، فإنها جميعا تحتاج إلى ربها جل وعلا وتتوكل عليه في كسب مطالبها ومن ذلك الرزق .

وقد تكلم عليها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ـ في مدراج السالكين في التوكل ـ كلاما طيبا . ([1])

والناس تتفاوت هممهم في التوكل كما قال ابن القيم ، {فبعض الناس همته الملك وبعض الناس همته رغيف عيش ، وأعظم التوكل ما كان في الواجبات الدينية، كالتوكل على الله جل وعلا في أمور الإيمان وتكميل أمور الإحسان والقيام بأعباء الدين والرسالة وتبليغها ، فهذا أعظم أنواع التوكل } لأننا إذا قلنا : **التوكل** ، فالناس لا تعرف إلا التوكل في جلب الأرزاق فقط وطلب الوظائف وطلب ما هو آت ، وقليل من ينتبه إلى التوكل على الله جل وعلا في المصالح الدينية وأمور الآخرة وتحصيل أمور الدين ومقامات الإحسان والجهاد في سبيل الله والدعوة وتحصيل ما ينفع الإنسان في دينه سواء كان هذا في الدنيا أو في الآخرة .

وابن القيم رحمه الله تعالى ذكر للتوكل درجات .

والتوكل لا بد فيه من معرفة معاني الربوبية ، كمعرفة قيومية الله جل وعلا وكفايته لعبده وقيامه جل وعلا بشؤون كونه وعلمه بكل شيء واطلاعه على كل شيء ، ومن جميل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا المبحث قوله :

وَلِذَلِكَ لاَ يَصِحُّ التَّوَكُّلُ وَلاَ يُتَصَوَّرُ مِنْ فَيْلَسُوفٍ. وَلاَ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يَشَاءُ. وَلاَ يَسْتَقِيمُ أَيْضًا مِنَ الْجَهْمِيَّةِ النُّفَاةِ لِصِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ. وَلاَ يَسْتَقِيمُ التَّوَكُّلُ إِلاَّ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ.

فَأَيُّ تَوَكُّلٍ لِمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَّ لاَ يَعلمُ جُزَيْئَاتِ الْعَالِمِ سُفْلِيِّهِ وَعُلْوِيِّهِ؟ وَلاَ هُوَ فَاعِلٌ بِاخْتِيَارِهِ؟ وَلاَ لَهُ إِرَادَةٌ وَمَشِيئَةٌ. وَلاَ يَقُومُ بِهِ صِفَةٌ؟ فَكُلُّ مَنْ كَانَ بِاللهَّ وَصِفَاتِهِ أَعْلَمُ وَأَعْرَفُ كَانَ تَوَكُّلُهُ أَصَحَّ وَأَقْوَى. وَاللهَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

معنى كلامه رحمه الله أن التوكل ليس من نصيب الفلاسفة أو القدرية أو الجهمية لأن الفلاسفة يزعمون أنه لا يعلم الجزئيات والقدرية يزعمون أنه يحصل في الكون شيء بدون إرادته والجهمية نفاة الصفات، فليس لهم نصيب من معاني التوكل لأنهم ما بين معطل وناف ؛ أما الذي له النصيب الأوفى من

---

[1]) انظر مدارج السالكين (٢/ ١١٣ وما بعدها) .

التوكل فهم أهل الإثبات الذين يثبتون أسماء الله جل وعلا وصفاته ؛ فهؤلاء لهم النصيب الأوفى في التوكل.

التوكل معناه في اللغة كما قال ابن الأثير: يدور على التفويض والاعتماد ، يقال: فوضت أمري إلى فلان ؛ أو فلان توكل بالأمر أي ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان إذا اعتمدت عليه فيه .

وفي الاصطلاح : ذكر ابن القيم تعاريف قد تصل إلى أكثر من ثلاثين تعريفا ، لكن التعريف الذي اعتمدناه وهو تعريف شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى هو : الاعتماد على الله جل وعلا والثقة به في جلب المصالح ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب . هذا هو التعريف المختار للتوكل والتعاريف الأخرى إما أخذت بعضا منه أو جزءا منه أو أخذت ثمرة من ثماره .

التوكل ينقسم إلى أقسام ثلاثة :

النوع الأول: التوكل الشرعي :هو أن يتوكل العبد على الله جل وعلا وأن يثق بما في يديه في جلب المصالح ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب وهذا عبادة ، ومعناه يدور على الاستسلام والتفويض ، تفويض الأمر لله جل وعلا والاستسلام له كلية.

النوع الثاني: التوكل الشركي :

وينقسم إلى قسمين **الأول: شرك أكبر**: وهو أن يتوكل على أحد من المخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى كأن يتوكل على ميت من الأموات أو غائب أو ولي من الأولياء أو نحو ذلك في جلب رزق أو في دفع مضرة أو في شفاء مريض أو في ابتغاء الولد ونحو ذلك .

الثاني : ما هو دون ذلك : فيكون من الشرك الأصغر أو منه نوع من الشرك الأصغر كأن يقول الإنسان للشخص الآخر توكلت على الله وعليك. فيعطف التوكل على الله جل وعلا على العبد بالواو، فيسوي بينهما بهذا العطف ، وسيأتي باب مستقل فيه نص أهل العلم على أن هذا من الشرك الأصغر.

هناك أيضا نوع يسمونه نوع تشريك كأن يتوكل على العبد فيما أقدره الله جل وعلا عليه ، فيتوكل على شخص معين في رزقه مثلا ، كأن يكون مثلا الراتب بيده أو الوظيفة بيده أو فيما يأتيه من المصالح أو نحو ذلك، فربنا جل وعلا جعل هذا الشخص سببا في إيصال هذا الرزق إليه ، فينبغي للمسلم أن يعلم أن هذا إنما هو سبب من الأسباب ساق الله جل وعلا الرزق على يديه وأن الرازق هو الله جل وعلا ، فينبغي التوكل على الله لا على هذا الشخص . فهذه مسألة مهمة ، فينبغي أن نتوكل على المعطي ، على الرزاق ؛ ولا نتوكل

على من ساق على يديه هذا الرزق ، لذلك أهل العلم جعلوا هذا نوع تشريك ، من الشرك الأصغر.

القسم الثالث : وهو توكل مباح : وهو التوكل بمعنى التفويض والإنابة وهو موجود بين الناس الآن يقال وكلتك في انهاء معاملة ما مثلا في المسألة الفلانية أو في المصلحة الفلانية فهذا نوع من الإنابة ، وإن أطلق عليه توكيلا، أو وكالة أو توكلا لكنه توكل بالأمر بمعنى أنه أنابه أن يقوم به مكانه ، قد يقوم به مكانك إما لعجزك عن هذا الشيء ، أو لغير عجز كانشغالك بسفر أو نحوه ؛ فتوكله بهذا ، فهذ النوع جائز.

مسألة : ما حكم قول القائل توكلت على الله ثم عليك؟

كثير من أهل العلم يمنع هذه الكلمة وإن أتى بلفظ ثم ، لأن التوكل عبادة قلبية ، فلا يصلح أن تشرك فيها أحدا . وبعض أهل العلم كالشيخ ابن باز رحمه الله يجيزها من باب أن هذا فيه معنى الإنابة الذي ذكرناه في القسم الثالث ، فيه معنى الإنابة والتوكيل في قضاء أمر من الأمور، ولو تركها الإنسان لكان أحوط خروجا من الخلاف وإذا وجدنا أحدا فعلها فهذا له مسوغ كما سبق .

ابن القيم رحمه الله تعالى يقول في المدارج : **التوكل مَنْزِلَتُهُ أَوْسَعُ الْمَنَازِلِ وَأَجْمَعُهَا وَلاَ تَزَالُ مَعْمُورَةً بِالنَّازِلِينَ، لِسَعَةِ مُتَعَلَّقِ التَّوَكُّلِ، وَكَثْرَةِ حَوَائِجِ الْعَالَمِينَ** ـ فكل العالمين من إنس أو جن أو حيوان أو طير أو غير ذلك لا بد لكل هؤلاء من التوكل في تحصيل أمورهم ومكاسبهم ومعاشهم ـ **وَعُمُومِ التَّوَكُّلِ، وَوُقُوعِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَالأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَالطَّيْرِ وَالْوَحْشِ وَالْبَهَائِمِ** ـ كل هؤلاء يقع منهم التوكل حتى الكافر كما قال جل وعلا : **(فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين)** فيذكرون التوكل والدعاء في باب واحد، كما أن الفاجر أو الكافر والفاسق لا غنى له عن دعاء الله جل وعلا في وقت الملمات ووقت الحاجات كذلك لا غنى لهم أيضا عن التوكل على الله جل وعلا في جلب حوائجهم ودفع المضار عنهم. كذلك الوحش والبهائم لا بد أن يكون عندهم نوع من التوكل على الرب جل وعلا في تحصيل حاجاتهم لأنه جل وعلا أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. فالبهائم عندها نوع من الهداية العامة لما فيه مصالحها ، قال تعالى **(وتوكل على الحي الذي لا يموت)** فالتوكل يكون على الحي الذي لا يموت ؛ فمن توكل على إنسان مثله فقد توكل على ميت فكيف بمن يتوكل على ميت؟ لأن الإنسان مآله إلى الموت ، لذلك قال ربنا جل وعلا **(وتوكل على الحي)** فليس لك أن تتوكل إلا على الحي ، والرب جل وعلا هو الذي له الحياة الكاملة الدائمة الباقية التي لم

يسبقها عدم ولا يلحقها فناء ، وما عداه فإن حياته ناقصة تسبق بعدم وتلحق بفناء .

وقال رحمه الله تعالى : التوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض . يعني لا بد مع التوكل من الأخذ بالأسباب ؛ فمن زعم أنه متوكل على الله بدون الأخذ بالأسباب فهذا عاجز. وبعض أهل العلم يسميه متواكلا ، وهذه من الآفات التي ذكرها ابن القيم بعد انتهائه من ذكر مراتب التوكل إذ يقول: التوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض وإن كان مشوبا بنوع توكل . لأن النبي صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين أخذ بالأسباب ، فدخل الحروب ولبس الدرع ومسك السيف وقاتل بالسيف وجهز الجيوش ونظمها ورتبها صلى الله عليه وسلم ؛ وعندما أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة لم يذهب هكذا في الصحراء كما يفعل بعض الصوفية وبعض من يزعم أنه من المتوكلين بل اتخذ دليلا مرشدا وكان كافرا ؛ وكان معه الصديق رضي الله عنه ، وهو صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين .

إذاً لا يتم التوكل إلا بالأخذ بالأسباب ، فلا يأتي أحد يقول : أنا متوكل على الله جل وعلا ولن أخرج من بيتي فإن الأرزاق مكتوبة ، يقال له : إذا كان الإنسان مكتوبا له الولد مثلا وهو من الأرزاق فهل من الممكن أن يأتيه الولد بدون زواج ؟ وكذلك إذا كان الإنسان يشعر بالظمأ أو الجوع فهل يقول أحد أنه سيأتيه الري والشبع بدون أن يشرب وبدون أن يأكل؟

الجواب : لا ؛ فكذلك المتوكل حقيقة هو الذي يسعى ويتحرك ، وكما قال السلف : من طعن في الحركة فقد طعن في النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه تحرك صلى الله عليه وسلم ، تحرك وسعى وحمل السيف وقاتل وذهب لأعدائه ولبس لأمة الحرب هو وأصحابه صلى الله عليه وسلم . **قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: مَنْ طَعَنَ فِي الْحَرَكَةِ فَقَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ. وَمَنْ طَعَنَ فِي التَّوَكُّلِ فَقَدْ طَعَنَ فِي الإِيمَانِ. فَالتَّوَكُّلُ حَالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْكَسْبُ سُنَّتُهُ.**[1]

فمن أهم المهمات أن تعلم أنه في التوكل لا بد من الأخذ بالأسباب المأمور بها وعند الأخذ بالأسباب يجب على الشخص ألا يلتفت إليها وألا تكون الأسباب في قلبه ، فالتوكل : الاعتماد على الله جل وعلا والثقة به في جلب المصالح ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب ؛ وينبغي عندئذ أن يجعل الأسباب في الظاهر في يديه ولا يجعل الأسباب في قلبه ، فإذا وصلت إلى شغاف قلبه فقد طعن في التوكل ؛ وليأخذ بالأسباب الظاهرة ولا يتوكل عليها بل يتوكل على

[1]) شعب الإيمان للبيهقي برقم (١٢٣١) .

مسبب الأسباب ، فإن التوكل سبب من الأسباب كالدعاء ، وقد أمرنا بالدعاء والرب جل وعلا تكفل بالإجابة وكذلك أمرنا بالتوكل وقد جاء الأمر بالتوكل للنبي صلى الله عليه وسلم في عدة مواضع من القرآن الكريم قال الله جل : **(وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)** وقال : **(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)** وقال : **(فتوكل على الله إنك على الحق المبين)** وقد جاء أيضا أن عباد الله المؤمنين والمرسلين يتوكلون على الله جل وعلا فقالوا **(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا)** وفي سورة الفاتحة الهداية والتوكل في قوله **(إياك نعبد وإياك نستعين)** فـ **{إياك نستعين}**: هي التوكل ؛ و **(اهدنا الصراط المستقيم)** طلب الهداية ؛ ومؤمن آل فرعون قال: **(وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد)** فقال تعالى :**(فوقاه الله سيئات ما مكروا)** فهذه ثمرة التوكل ، الكفاية ، أن يكون الله جل وعلا كافيا عبده المتوكل عليه .

فثمرة التوكل الكفاية ، لكن إذا صدق العبد في توكله فإنه ينال مراده ، فإذا كان الشيء الذي أراده من أمور الدين فقد حصل الأمرين معا وفاز بهما ، حصل التوكل وفاز بثوابه وحصل ما أراد ، وكما سبق أن أعظمها ما يتعلق بالمصالح الدينية وإذا كان في أمر لا يرضاه الله جل وعلا وحصله فهو مذموم مبغض إلى الله جل وعلا وإن أعطاه ما أراد ، وإن كان في أمور الدنيا من المباحات فإن استعان به على طاعة الله فله أجره وثوابه وإلا فهو من المباحات وقد حصل أو أخذ أجر التوكل .

ابن القيم رحمه الله تعالى يعلق على كلمة الإمام أحمد : **التوكل عمل القلب.** أي ليس بتلفظ اللسان وليس بعمل الجوارح ولكنه عمل قلبي فيريد أن يقول هذا العمل القلبي لا بد فيه من العلم .

يقول: التوكل يجمع أصلين علم القلب وعمله ، يبين ذلك بقوله: علمه : يقينه بكفاية وكيله ، ووكيلنا هو الله جل وعلا ، ويوقن ويكون عنده يقين بأن الله الوكيل هو الكافي وهو حسبه ، فيوقن أن الله جل وعلا هو نعم الوكيل وهو الذي سيقوم بأمورك لكمال قيوميته جل وعلا فإن كل شيء في الكون لا يقوم إلا إذا أقامه الرب سبحانه وتعالى، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فلو أن أهل السماوات وأهل الأرض جميعا جاؤوا ليكفوك وليكونوا حسبك ما استطاعوا، بل الكافي هو الرب جل وعلا، هذا بالنسبة للعلم في التوكل .

فالتوكل يجمع أصلين: أولا: العلم ، ثانيا: عمله يعني عمل القلب ، أي سكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه الأمر إليه ، فيسكن إلى الله جل وعلا ويطمئن إليه ويطمئن إلى كفايته وإلى ما عنده ويفوض أمره إليه ، وأن

غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، ورضاه ، فيرضى القلب بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه ، يقول: فبهذين الأصلين يتحقق التوكل ، يعني على الله جل وعلا ، وهما جماعُه .

ويقول أيضا: التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، يعني من أراد أن يحقق مقامات الإيمان ومراتب الإيمان والإحسان بدرجاتها وبكمالها فلا بد لها من تحقيق التوكل ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس .

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في الدرر السنية :{ التوكل من نتائج توحيد الربوبية وقد تصدر الإنابة والتوكل من عابد الوثن بسبب معرفته بالربوبية}، يعني إذا العبد تصور وعلم وأيقن بمعاني الربوبية وأن الله جل وعلا هو المتفرد بالربوبية في الخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة وله الملك كله وله الأمر كله وله التصرف في خلقه كله وهو المطلع على خلقه كلهم، وهو المهيمن، والسلطان له جل وعلا ، هذه كلها من معاني توحيد الربوبية ، وهذه المعاني يشترك في معرفتها المسلم والكافر، فإذا سألت كفار قريش عن الخالق والرازق والمعطي والمانع والمتصرف في الكون على الحقيقة يقولون الله جل وعلا ، لكنهم يشركون معه غيره من أصنامهم وأنصابهم وأوثانهم بحجة **(ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)** فإذا العبد تأمل في معاني توحيد الربوبية عظم عنده التوكل وازداد .

يقول : التوكل من نتائج توحيد الربوبية وقد تصدر الإنابة والتوكل من عابد الوثن بسبب معرفته بالربوبية ، قال تعالى **(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا)** ثم يقول: {والإخلاص لله تعالى بالعبادة من نتائج توحيد الألوهية ؛ وكذلك توحيد الألوهية هو أشهر نتائج توحيد الربوبية }، لأن من اعتقد توحيد الربوبية فإنه من المفترض أن يؤديه هذا إلى توحيد الالوهية ؛ فتوحيد الربوبية من لوازمه توحيد العبادة إذا اعتقد أن المالك هو الله جل وعلا وأن الخالق هو الله جل وعلا وأن الملك هو الله جل وعلا وأن الذي بيده الرزق هو الله جل وعلا الواحد الأحد، فلا بد أن يفرد العبادة لهذا الواحد الأحد الخالق الرازق الملك المالك الذي بيده الملك وله الأمر؛ ثم قال : {وهذا وأمثاله لا يعرف إلا بالتفكر لأنه قد لا يفهم الإنسان هذه العبارات من أول وهلة ، بل يحتاج إلى تأمل فيها }.

الدليل الأول :

قوله: باب قول الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) هذا الباب من الممكن أن يسمى وجوب التوكل على الله عز وجل ، وأيضا لكي يكون الأمر واضحا إذا انتفى التوكل من قلب الشخص كلية انتفى إيمان الشخص، ثم إذا كان أصل التوكل موجودا وحصل نقص فيه ؛ فبمقدار النقص في هذا التوكل يكون النقص في إيمان الشخص أو في إسلامه .

قال تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) {إن كنتم مؤمنين} هذه شرطية. يعني إن كنتم مؤمنين فأفردوه بالتوكل ، لذلك المؤلف رحمه الله تعالى يقول في المسائل : إنه من شروط الإيمان ، يعني شرطا في الإيمان والإسلام ، وهو يقصد بالشرط هنا الجزء ، أي أنه جزء من الإيمان أو من حقيقة الإيمان ؛ لذلك الشيخ يقول **المسألة الأولى: التوكل من الفرائض**، وهذا ما جعلناه عنوانا للباب ، التوكل من الفرائض ، يعني والواجبات ، الثانية أنه من شروط الإيمان ، بمعنى أنه ينتفي الإيمان بانتفاء التوكل ، فينتفي الإيمان بانتفاء التوكل يعني بانتفاء أصل التوكل ، أما إذا كان هناك قدر من التوكل ضعيف فإنه بمقدار النقص من التوكل يكون النقص من الإيمان.

قوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) جوابه: فأفردوا الله بالتوكل ، يعني إن كنتم مؤمنين فأفردوا الله بالتوكل عليه ، وهذا أسلوب حصر جاء من تقديم ما حقه التأخير ؛ **(وعلى الله فتوكلوا)** أصل الجملة توكلوا على الله إن كنتم مؤمنين ، فقدم ما حقه التأخير للدلالة على الحصر والاختصاص، يعني أن التوكل لا يكون إلا على الله جل وعلا ويختص به سبحانه وتعالى فلا يجوز أن تتوكل على غيره كائنا ما كان، والآية فيها أمر؛ وهو قوله: **(فتوكلوا)** والأمر يفيد الوجوب ، فالتوكل على الله جل وعلا فريضة وواجب ، وكثير من الناس في غفلة عن الأعمال القلبية ، فالتوكل على الله جل وعلا عبادة عظيمة كما أن الركوع والسجود لا يكونان إلا لله جل وعلا كذلك الرغبة والتوكل ؛ كل هذه لا تكون إلا على الله سبحانه وتعالى ، فالتوكل أعظم الأسباب في حصول الخير ودفع الشر في الدنيا والآخرة ، وهذا الكلام ينبغي للشخص أن يتأمله وينزله على نفسه وينظر منزلته من التوكل ومن المتوكلين ؛ وكيف يرتقى لهذه المنزلة التي هي منزلة الأنبياء والمرسلين وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل إن اسم النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في صحيح البخاري ([1]) من حديث عبد الله بن عمر أن النبي

---

[1]) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢١٢٥) .

صلى الله عليه وسلم من أسمائه المتوكل **فقال : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا "** فمن أسمائه المتوكل، وهو سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم ، قال الله جل وعلا له **(فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)** فوجبت محبة الله جل وعلا للمتوكلين ؛ يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى: هذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان ـ يعني كمال الإيمان الواجب الذي إذا تركه الإنسان فإنه يأثم ـ بانتفاء التوكل على الله ؛ إلا إن حصل اعتماد كلي على غير الله فهو شرك أكبر ينتفي الإيمان كله به .

الدليل الثاني :

وقوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) هذه خمس صفات لأهل الإيمان ، ومن هذه الصفات المذكورة أنهم على ربهم يتوكلون ، كما في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ([1]) فقد يتركون أسباب العلاج المباحة أو المكروهة مثل الكي اكتفاء منهم بتوكلهم على ربهم جل وعلا وكفايتهم به سبحانه وتعالى .

الدليل الثالث :

وقوله تعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

(حسبك الله) : أي الله جل وعلا كافيك ، فهو الكافي لك .

(ومن اتبعك من المؤمنين): الراجح أن العطف هنا على الكاف في **(حسبك)** أي الله حسبك وكافيك وهو كافي من اتبعك من المؤمنين ، لأن بعض أهل العلم يقول: الله كافيك وهو حسبك ، ومن اتبعك من المؤمنين يكفونك أيضا ، وهذا قول ضعيف لا تعضده اللغة وكذلك الأدلة الشرعية ، فإن الحسب لله جل وعلا وحده ، والنصرة لله جل وعلا ولأوليائه ، لذلك الراجح هنا أن **(ومن اتبعك)** الاسم الموصول هنا معطوف على الكاف فالله كافيك وكاف من اتبعك

---

[1]) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٧٠٥) ، ومسلم في صحيحه برقم (٢٢٠).

من المؤمنين كما قال : **(إن الله يدافع عن الذين آمنوا)** وفي قراءة: **(إن الله يدفع عن الذين آمنوا)** .

وقال تعالى **(قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)** أي قل يا محمد حسبي الله ، يعني الله حسبي وكافيني . **(قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)** لا على غيره .

الدليل الرابع :

وقوله: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)

(مَن): شرطية ، **(يتوكل)** : فعل الشرط ، **(فهو حسبه)** : جزاء الشرط ، وكفى بهذا جزاء ، كفى جزاء بمن توكل على الله جل وعلا أن يكون الله جل وعلا هو حسبه ، فلم يقل من يتوكل على الله فله أجر كذا وكذا أو له قصر في الجنة أو له من الحور العين كذا وكذا ، لا ؛ بل قال: **(ومن يتوكل على الله فهو حسبه)** وكفى بهذا الجواب فضلا عظيما للمتوكلين ؛ فإذا كان الله جل وعلا هو الكافي لعبده وحده وجب ألا يتوكل إلا عليه سبحانه وتعالى .

من توكل على الله جل وعلا حق توكله فكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل الله له من بينهن مخرجا وفرجا لأن الله هو حسبه وكافيه .

الدليل الخامس :

وعِنْ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قالَ: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ} قالَهَا إبْرَاهِيْمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ أُلْقِيَ فِي النَّار، وقالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ قالُوا لَهُ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ} (آل عِمْرَان:١٧٣). رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ. ([1])

هذا الأثر سبق الكلام عليه في الباب السابق عند قوله تعالى **(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)** وأنه بعد غزوة أحد نظر أبو سفيان فوجد أنه ينبغي عليه ألا يرجع هو ومن معه حتى يجهز على المسلمين ، الذي ظن أنه انتصر عليهم في أحد ، فمر به ركب من الركبان ؛ فقال : أين تذهبون؟ فقالوا: نذهب إلى المدينة ، فقال: بلغوا عني محمدا صلى الله عليه وسلم أننا قادمون إليهم لنستأصل شأفتهم ؛ فلما جاء هؤلاء الركب إلى المسلمين أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروهم بأن أبا سفيان يعد العدة ليكر مرة أخرى على المدينة ويخوفونهم ؛ فقالوا **(حسبنا**

---

[1]) رواه البُخَارِيُّ في صحيحه برقم(٤٥٦٣)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الكُبْرَى (١١٠١٥).

الله ونعم الوكيل) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان معه ممن خرج في أحد أن يخرج وألا يخرج أحد سواهم ، فخرج من معه في جراحاتهم وآلامهم ونزلوا بمنطقة تسمى : حمراء الأسد وعسكروا فيها ، فلما سمع أبو سفيان أن المسلمين خرجوا له واستعدوا لقتاله وأنه لم يؤثر فيهم ما أصابهم ؛ خاف وأخذ من معه وصرفه الله جل وعلا وصرفهم جميعا حتى رجعوا من حيث أتوا وقال تعالى عن المسلمين **(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله)** فكذلك المتوكل على الله جل وعلا هذا جزاؤه وهذا نصيبه ؛ ينقلب بنعمة من الله جل وعلا وفضل ، وينجو من الخلق كائنا ما كانوا بفضل الله سبحانه وتعالى، هذه هي الكلمة التي قالها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وقالها كذلك الخليل إبراهيم عليه السلام ؛ فقالها الخليلان ؛ قالها إبراهيم عليه السلام حينما **(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين)** فأضرموا نارا عظيمة ، وكتب التفسير تورد الآثار الكثيرة في أمر هذه النار وفي أمر إلقاء إبراهيم عليه السلام ؛ وأكثرها أو غالبها بلا إسناد ولكنهم يسوقونها هكذا ، كل ينقل عن المتقدم ومنها : أنهم أضرموا نارا عظيمة في شهر، وكان الرجل ينذر إن شفاه الله أن يأتي بحطب يضعه في هذه النار والمرأة كذلك تنذر إن أتاها ولد أو شفيت أن تأتي بحطب تضعه في هذه النار؛ إلى آخره. المقصود أنهم أضرموا نارا عظيمة لكي يلقوا فيها إبراهيم عليه السلام ثم بعدما أضرموا النار تعجبوا كيف يلقونه في هذه النار وهي محرقة ، يقول المفسرون إنه من لهبها وشدة وهجها تحرق ما يمر بها من الطيور، فأوحى إليهم إبليس أن يصنعوا المنجنيق ويلقوه في هذه النار بالمنجنيق .

وما حصل لإبراهيم عليه السلام في فترة الإلقاء إلى أن استقر في النار أيضا فيه كلام كثير للمفسرين فيقولون : أتاه ملك الرياح لكي يرسل الرياح على هذه النار وأتاه ملك البرد وأتاه جبريل فكان يقول إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا ؛ يعني لا حاجة لي فيك ؛ وحاجتي للرب جل وعلا .

وكل هذا أورده المفسرون بدون أي أسانيد ، وبعضها مروي عن السدي وبعضها مروي عن غيره .

والواضح في كتاب الله جل وعلا أن الله جل وعلا قال: **(قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم)** فلو كانت بردا فقط لأهلكته ببردها كما تهلك من حرها ، لكنه قال **(وسلاما)** بردا وسلاما ، فحصلت فيها السلامة وانطفأ نارها ، فالذي ورد في الصحيح من هذا أن إبراهيم عليه السلام قال : **حسبي الله ونعم**

الوكيل كما ورد في صحيح البخاري آخر كلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار: **حسبي الله ونعم الوكيل** ([1]) ، ومشهور عند الوعاظ والخطباء والقصاص كلمة أنه قال :علمه بحالي يغنيني عن سؤاله ، وهذا الكلام لا أصل له ، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : هذا لا أصل له وهذا موضوع. بل حال الأنبياء سؤال الرب جل وعلا ودعاؤه وهو أكمل الحالات أنهم يسألون الله جل وعلا جلب المصالح ودفع المفاسد ، والنبي صلى الله عليه وسلم في بدر كان يناشد ربه جل وعلا مناشدة عظيمة حتى قال له الصديق: كفاك مناشدتك ربك .([2])

وقال تعالى : **(وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)** ؛ وجاء في الحديث الحسن الإسناد «**من لا يسأل الله غضب – أو يغضب - عليه**» ([3]) ، وكما قال الشاعر:

الرب يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

فهذا الأثر: علمه بحالي يغنيني عن سؤاله لا أصل له وهو مصادم لما جاء في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، فالرب جل وعلا يحب عبده الذي يلح عليه في السؤال ويلح عليه في الدعاء ولا يضجر ولا يقول : دعوت فلم يستجب لي .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : المقدور- يعني الشيء المقدر - يكتنفه أمران - يعني يحيط به أمران - أمر قبله وأمر بعده ؛ التوكل قبله - يعني الثقة بالله وحسن الظن به وحسن الاعتماد عليه والأخذ بالأسباب وأن يعمل ما أمر به شرعا - التوكل قبله والرضا بعده - يعني الرضا بعد حصول المقدور - ثم إذا حصل المقدور يبقى الرضا، فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية .

إذا العبد عليه إذا أقبل على أمر من الأمور عليه أن يثق بالله جل وعلا ويحسن الاعتماد عليه جل وعلا ، ويأخذ بالأسباب المأمور بها ، فإذا حصل المقدور يرضى بفعل الله سبحانه وتعالى ، لأن أفعال الرب جل وعلا كلها حميدة ، فيحصل له بهذا مقام العبودية .

وابن القيم رحه الله يقول تعليقا على كلام شيخه : وهذا معنى ما جاء في دعاء الاستخارة وهو: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من

---

[1] رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٥٦٤) .
[2] رواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٦٣) .
[3] رواه الترمذي في سننه برقم (٣٣٧٣) .

فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه [من زواج أو سفر أو غيرهما] خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم ارضني به)) ([1]) ثم رضني به ؛ هذا مقام الرضا ؛ وفي أول الدعاء توكل على الله جل وعلا واعتراف بربوبيته سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه ، فهو يعلم وأنت لا تعلم وهو يقدر جل وعلا وأنت لا قدرة لك إلا ما أقدرك عليه ولا حول ولا قوة إلا به ؛ فأنت في الأول تقدم التوكل وفي الأخير تختم بالرضا ؛ فتجمع في هذا الدعاء بين هذين الأمرين : التوكل مع الرضا .

وقبل النوم تقول : اللهم إني أسلمت نفسي إليك ؛ ووجهت وجهي إليك ؛ وفوضت أمري إليك ([2])؛ فهذا آخر شيء تفعله في يومك ، فهذا تفويض الأمر لله جل وعلا، وهذا هو التوكل أو هو أحد معاني التوكل ؛ فهو سبحانه وتعالى حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه .

فِيْهِ مَسَائِلُ:

الأُوْلَى: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

سبق الكلام عليها .

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوْطِ الإِيْمَانِ.

سبق الكلام عليها .

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيْرُ آيَةِ الأَنْفَالِ.

سبق الكلام عليها .

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيْرُ الآيَةِ فِي آخِرِهَا.

يعني آية الأنفال **(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وسبق الكلام عليها**

الخَامِسَةُ: تَفْسِيْرُ آيَةِ الطَّلاَقِ.

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره) .

السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمُ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشَّدَائِدِ.

---

[1]) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٠٩٦).

[2]) رواه الترمذي في سننه برقم (٣٣٩٤) .

وكما قال ابن القيم : كلما كان الشخص بالله أعرف كان توكله عليه أقوى ، فالمتوكل الذي يعرف ربه جل وعلا بأسمائه وصفاته وما ينبغي له جل وعلا كلما كان هذا الشخص بالله أعرف كان توكله عليه أقوى ، يعني يقصد أن معرفة الأسماء والصفات لها أثر عظيم جدا في تحقيق التوكل وتقويته وتصحيحه فبحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل .

والله أعلم